

٢ - الغزالي وعلم النفس

للاستاذ حمدي الحسيني

العقل

بيننا في المقال السابق أن الغزالي رحمه الله لم يستطع أن يحل عقده النفسية بالتأمل الذاتي فانقلب ذلك التأمل مرضاً نفسياً مستصعباً وهو ما يسميه علماء النفس الماصرون بمرض (التأمل الذاتي المستمر) .

فزاد ذلك التأمل المستمر في آلامه وضاعف في شقائه وعذابه وانكبه على كل حال كان مؤمناً بضعفه أمام عظمة الله فخاف عذابه ورجا ثوابه فخضع لسلطانه الخاضوع المطلق، وانقاد لأوامره الاتقياء الأتوم . وقد دفنه هذا اليقين إلى المملى في سبيل نقل آرائه وأفكاره إلى المسلمين ليكون بها في نفوسهم إيماناً كما يمانه، ويقيناً مستوياً على القلوب كيئنه، فكان له في هذا السلوك تنفيس وتنشام كانا سبباً في احتياله العظيم لمضاضة الحرمان وغضاضة الاثراء والنسيان . وليس من شك في أن أحسن أنواع سلوكه رحمه الله هو كتابته هذه الكتب الكثيرة القيمة . التي أودعها تجاربه وآراءه وأفكاره ومعتقداته لا سيما كتابه النفس القيم - احياء علوم الدين -

في قصر سيف الدولة ، أو شاعراً من شعراء والده أبي الهيجاء . وحتى هذا الذي ذكره بحاجة إلى الوقوف عنده ، فنحن نستطيع أن نفهم أن كشاجم حين يكون طبياً سيف الدولة ولا يأتي ذكره في شعره ربما يكون ذلك ممقولا ، أما أن يكون شاعراً لأبي الهيجاء بينما لم يرد ذكر أبي الهيجاء هذا ولو في قصيدة واحدة من شعر شاعره فهذا هو الذي لا نستطيع أن نسيئه !!

ومع هذا فالباحث لا يصح أن يقف مكتوفاً أمام هذه الصواب ، وإنما يجب أن يعمل عقله في النصوص التي بين يديه عماه أن يخرج منها بشيء مما ذكره مشوهاً ، أو أغفلوا ذكره إغفالا .

فهذا ديوان الشاعر يحدثننا أنه مدح علي بن سليمان الأخفش النعموي ، وبصفه بأنه أستاذه ، وأنه قد نخرج عليه (١) ، ويحدثننا بأقوت في مجمعهم أن هذا الأخفش مات في شعبان سنة

الذي نعتبره من أئمن الكتب الالامية في الدين والآداب والأخلاق والتربية وعلم النفس . فقد دون فيه صوراً متعددة لتنتائج تأملاته الطويلة بدأ بمضاهي ألوان متألفة منسقة وبعضها الآخر بألوان متنافرة مختلفة . فكان في تدوينها خير للعالم وموعظة حسنة للتحليل النفسي والتأمل الذاتي .

ولنأخذ الآن بمد هذه المقدمة كتاب الأحياء الذي أوردته الغزالي نتيجة مجهوده الفكري وصفارة تأملته النفسية فندرسه دراسة تصل بها إلى ما رمينا إليه من غرض ، والله الموفق لما فيه الخير .

لا يزال علماء النفس مختلفين في ماهية العقل وحقيقته فلم يآراء كثيرة متضاربة ولكنهم جادون في البحث عن هذه الحقيقة . ونحن وإن كنا لم نقف لعلماء النفس على رأي إجماعي في موضوع العقل . فقد رأيناهم بمتبرون اللاشعور أو العقل الواعي بمثابة أجزاء للعقل ، فالعقل في نظرم هو اللاشعور بخبره وشعره ، وهو الشعور بمحله ومره .

ليس في هذا شيء غريب ولكن الغريب كل الغرابية أن يتفق رأي الغزالي في العقل مع آراء علماء النفس في العصر الحاضر .

فإننا نراه يتحدث عن اللاشعور ووحيد الشعور وشبه الشعور والشعور أو العقل الباطن والعقل الواعي كأجزاء للعقل . يقول في الباطن

٣١٥ هـ ٣ (٢) والمني هذا أن كشاجم كان قد جاوز مرحلة الطفولة ، ثم مرحلة التحصيل الأولى - على الأقل - قبل هذا التاريخ ، وإلى جانب هذا نراه يرى محمد بن عبد الملك الهاشمي ٣ المتوفى سنة ٣١٢ هـ ٤ وهذا منناه كما قلنا أن كشاجم لم يكن في سن الطفولة الأولى إذ ذاك وأنه كان على الأقل في الحلقة الثانية من عمره ، وهذا كله يقوى عندنا الظن بأن مولده كان في أواخر القرن الثالث الهجري ، وإذا كان قد رجح في نظرنا ذلك الرأي النائل بأن وفاته كانت ٣٦٠ هـ فبني هذا أن حياة كشاجم أربث على السنين ، وهذا ما يؤيده ذكره للشيب والضمف في مواضع كثيرة من ديوانه .

عبر الجواد الطيب

١. النسخة المخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٥٧٩ أدب ورقة ٣٢، ٣٣

٢. مجمع الأدباء الياقوت ١٣/٢٤٦ ٤ تاريخ بغداد ١/٢١٨

٣. مجمع الأدباء الياقوت ١٣/٢٤٦ ٤ تاريخ بغداد ١/٢١٨

العقل هو المعرفة التكوينية النامية ، ولهذا بدأ في تقسيمه بأول درجات المعرفة وهي المعرفة الفرزبية ثم ارتقى منها إلى ما بعدها من المعرفة المكتسبة . وقد أشبه الغزالي في تقسيمه هذا بعض الماصرين في تقسيمهم العقل إلى أربعة عقول وهي العقل الحيواني والعقل الانساني المصحى والعقل الثقاني القديم والعقل الثقاني الحديث .

وننتقل الآن بعد الذي قدمناه عن العقل عند الغزالي إلى الأجزاء التي يتألف منها كل قسم من الأقسام الأربعة للعقل وهي في نظر الغزالي ثلاثة « العلم والحال والعمل . فالشعور واللاشعور بل كل عملية عقلية تتكون عند الغزالي من هذه الأجزاء الثلاثة . وهذا يتطابق تمام الانطباق على ما يقوله علماء النفس الماصرون في هذا الموضوع يقولون : إن الشعور أو اللاشعور بل كل عملية عقلية تتألف من ثلاثة مظاهر أساسية وهي الادراك أو المعرفة ، الوجدان والمحافظة ؛ والنزوع أو المحاولة ، فالادراك هو مجرد علمك بما في نفسك من الخواطر أو بما يحيط بك من الأشياء من غير أن تفعل أو تتأثر . والوجدان هو ما تجده في نفسك من لذة أو ألم يصحب الادراك أو النزوع . والنزوع هو محاولة أو جهد يبذله الانسان ليستقيم الارتياح الذي وجده أو ييمد عما شعر به من ألم وضيق .

نرى في هذه المقابلة توافقاً تاماً بين تحليل الغزالي للعملية العقلية التي يتألف منها كل قسم من أقسام العقل والتحليل الحديث .

فالعلم عند الغزالي هو الادراك أو المعرفة . والحال عنده هو الوجدان أو المحافظة أي الحال الذي يكون عليه المتأثر المنفعل بباطنه ووجدانه . والعمل عند الغزالي هو النزوع والمحاولة . وننتقل بعد هذه المقابلة بين أجزاء العملية العقلية التي يتألف منها الشعور واللاشعور عند الغزالي وعلم النفس الحديث إلى الجزء الأول من أجزاء هذه العملية العقلية وهو (العلم) أو المعرفة أو الادراك نرى ما عند الغزالي في هذا الموضوع فتقابلة بما عند علم النفس عنه .

وهذا ما سنقوم به في المقال القادم إن شاء الله .

صمري الحسيني

الجزء الأول من أحياء علوم الدين في بيان حقيقة العقل وأقسامه .
« اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم . والحق الكاشف للمطالع فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين على معان عدة وما يجري هذا الجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه (فالأول) الوصف الذي يقارن الانسان به سائر البهائم ، وهو الذي استمد به لقبول العلوم النظرية وتدير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراد الحارث ابن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل أنه غريزة يتميهاها ادراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب يستمد لإدراك الأشياء « والثاني » العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالم بان الاتنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد « والثالث » هو انتهاء قوة الغريزة إلى حد معرفة عواقب الأمور وقم الشهوة الداعية إلى اللذة المأجلة وقهرها . وهو الأسس والنبع ، والثاني هو النوع الأقرب اليه ، والثالث فرع الأول والثاني والرابع هو الثمرة الأخيرة والغاية القموى . والأولان بالطبع والأخيران بالا ككتاب . ولذلك قال على كرم الله وجهه

رأيت العقل عقليين فطبع ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

نرى الغزالي في هذا القول قد رتب صفات العقل ترتيباً بديماً وافق ترتيب علم النفس الحديث موافقة تامة . فقد جعل القسم الأول والثاني من أقسام معاني العقل يقابلان اللاشعور ووحيد الشعور . وقد وصفها بأنها الأسس والنبع المتكونان بالطبع ، أو هما العقل المطبوع الذي يقابل ما يسميه علم النفس الحديث بالعقل الباطن . وجعل القسم الثالث والرابع في مقابل شبه الشعور والشعور فقد وصفها بالثمرة الأخيرة والغاية القموى للمعرفة التي تأتي بالا ككتاب ، أو هما العقل المسموع الذي يقابل ما يسميه العلم الحديث بالعقل الواعي . وواضح من تقسيم الغزالي العقل أنه يستبر